التقاطع المعرفي بين اللسانيات وعلم النفس

ترتبط الدّراسات في مجال علم اللغة النفسي ارتباطا وثيقا بالعلوم الأخرى، ولعلّ هذه العلاقة هي ما جعل بعض الباحثين ينفون صفة العلميّة عن هذا الفرع اللغوي، كونه مجالا تتقاطع فيه علوم سابقة الوجود وقائمة المناهج والأركان، وهو في طرح هذه الإشكالية (علمية العلم)شأنه شأن باقي العلوم اللغويّة التطبيقيّة، التي تستفيد انتقائيا من علوم أخرى في معالجة قضاياه، وفي هذا الإطار يرتبط علم اللغة النفسي بعدد من العلوم أهمها علم النّفس، وعلم اللغة.

1 : طبيعة العلاقة بين علوم اللغة

قبل توضيح علاقة علم اللغة النّفسي بالفروع اللغويّة، علينا أوّلا بيان العلاقة بين علم اللغة التطبيقي، وبين علم اللغة العام، على اعتبار أنّ علم اللغة النّفسي فرع من فروع علم اللغة التطبيقي، فعلم اللغة التّطبيقي ليس تطبيقا لعلم اللغة العام، وما وصفة بالتطبيقي إلا لكون موضوعاته ومجالاته ذات طابع تطبيقي، ولكنّ هذا العلم التطبيقي يتميّز بالمرونة والانتقائية والنّفعيّة والفاعليّة، وعليه فإنّ اللغويين التطبيقيين لا يمتنعون عن الأخذ بالنتائج التي حققتها علوم أخرى نظريّة وتطبيقيّة تفيد في معالجة القضايا وإيجاد الحلول، ولذلك يتميّز علم اللغة التطبيقي بغنى المرجعيّات المعرفيّة، اللغويّة وغير اللغويّة.

ونشير هنا أيضا إلى وجود تداخل شديد بين موضوعات علم اللغة النّظري وعلم اللغة التّطبيقي من جهة، وبين موضوعات فروع علم اللغة التطبيقي من جهة ثانية، ونضرب مثالا هنا بالنتائج التي حققها علم اللغة النظري، والتي أفادت كثيرا في ميداني تعليم اللغات والترجمة الآلية، ومن امثلة النوع الثاني من العلاقة دراسة قضيّة الاكتساب اللغوي في النظريّات اللغويّة الحديثة، بالإضافة إلى تناولها في عدّة فروع تطبيقيّة كتعليميّة اللغات، وعلم اللغة الحاسوبي، وعلم اللغة النّفسي.

2 :علاقة علم اللغة النّفسي بالعلوم اللغويّة

كانت الدّراسات النّفسيّة للغة تتم ضمن مجال علم النّفس، بحكم أنّ الدراسات النّفسيّة أقدم من الدّراسات اللّغويّة، وكان إطار هذه الدّراسات هو :علم نفس اللغة، أو علم النّفس اللغوي، والذي كان من أهمّ موضوعاته في الجانب اللغوي هو اضطرابات الكلام
وأمراض التخاطب، والجوانب النّفسيّة ، المرتبطة بها، وكيفيّة علاجها.

شكّلت اللغة عموما موضوعا مشتركا بين علم النفس، وبين علم اللغة، وأصبحت اليوم الدّراسات اللغويّة، والدّراسات النفسيّة أشدّ تشابكا وامتزاجا فيما يخصّ اللغة، من حيث المناهج، كون اللغة من اهمّ مظاهر السّلوك الإنساني.

وعلم النّفس مجاله اللغوي اكتساب اللغة وتعلّمها، ودراسة الكيفيّة التي تتم بواسطتها العمليّات التواصليّة فهما وإنتاجا بواسطة اللّغة، لأنّ اللغة تعكس عمليّات نفسيّة لدى الفرد المتكلّم /المستمع، وتعكس

رؤيته للعالم ونظرته للأشياء، وتحليله للأمور، فلكلّ فرد واقع نفسي داخلي يعبّر عنه بواسطة اللّغة، وتبعا لهذا الواقع تتمظهر الظواهر اللغويّة بشكل يختلف من شخص لآخر.

سبقت المفاهيم النّفسيّة الرؤى التي تطوّرت ونضجت من قبل اللّغويين، في إطار ما عُرف فيما بعد باللسانيات النفسية/ علم اللغة النّفسي، ولهذا السّبب فإنّ علم اللغة النّفسي يرتكز اليوم على المفاهيم والمصطلحات، والمناهج المقترحة في دراسة اللغة وتحليلها تحليلا نفسيّا، مستفيدا من النّتائج التي حققها علم النّفس في عدّة مجالات وخاصّة مجال اكتساب اللغة وتعلّمها، ومجال أمراض الكلام واضطرابات التخاطب، ولذلك تعدّ المرجعيّة النّفسيّة مرجعيّة ثريّة لا غنى عنها في مجال علم اللغة النّفسي.

يمكن توضيح العلاقة بين الدّراسات اللغويّة والدّراسات النّفسيّة، بالعودة إلى تاريخ علم اللغة النفسي، والمراحل التي مرّ بها في نشأته وتطوّره، ففي مرحلة سبقت ظهور علم اللغة الحديث بزمن كثير، طُوّرت مفاهيم في علم اللغة النّفسي، وفق ما قدّمه علم النّفس اللغوي، في أوروبا، على يد الألماني(ويلهام فند (1832- 1920)؛ حيث يعدّ هذا الباحث مؤسس هذا العلم، فقد أنشأ معملا خاصّا به عام (1879) ، وقد كانت دراساته ترتكز على مناهج ومفاهيم علم النّفس في هذا المجال، وهو أوّل من كتب حول سيكولوجيّة اللغة، انطلاقا من فكرة أنّ اللغة لا يمكن دراستها وتحليل ظواهرها بمعزل عن الأسس النّفسيّة، لكنّ هذا العلم لم يكن معروفا حينها بهذه التسمية(علم اللغة النّفسي.)

وبظهور علم اللغة الحديث على يد دوسوسير بدأت الإشارة إلى الجوانب النّفسيّة والمعرفيّة في اللغة، فمن المفاهيم النّفسيّة عند دوسوسير: المدلول، وهو التصوّر الذهني والصورة المفهوميّة، في مقابل الدال وهو الصورة الصوتيّة (الأثر السّمعي)، وقد أشار دوسوسير مباشرة إلى العلاقة بين علم اللغة وعلم النّفس، وخاصّة علم النفس الاجتماعي، بقوله في محاضراته" : كل ما في اللغة، في جوهره نفسي، بما في ذلك مادّة اللغة ومظاهرها ".كما تحدّث عن منطقة(بروكا) في الجزء الأيسر من الدّماغ، وهي المنطقة المسؤولة عن اللغة، والاضطرابات والأمراض اللغويّة الناجمة عن الإصابات المختلفة في هذه المنطقة .ونشير هنا أيضا إلى دورة التّواصل لديه وبخاصّة الجزء الداخلي منها (الاستيضاع وفكّ الاستيضاع.)

غير انّ علم اللغة النّفسي ظلّ مجرّد إشارات عرضيّة إلى الجوانب النّفسيّة هنا وهناك،وأهميّتها في الدّ راسات اللغويّة دون استقلاليتها في مجال خاصّ.

أمّا البداية الحقيقيّة لعلم اللغة النفسي، فقد كانت في الولايات الأمريكيّة أين امتزجت الدراسات في علم اللغة وعلم النّفس السلوكي، وقد بلغ الامتزاج ذروته، وصدر عدد من مجلّة علم النفس السلوكي عام (1930) خُصّص كلّه للحديث عن المشكلات المختلفة في علم اللغة النفسي، وقد كان لظهور علم النّفس السلوكي على يد(واطسن)الفضل الكبير في الالتقاء بين الدّراسات النفسيّة واللغويّة، أمّا الالتقاء الفعلي والامتزاج الحقيقي فقد كان علي يد السلوكيين والبنيويين، وعلى رأسهم(سكينر)و(بلومفيلد)، فقد ألف "سكينر" كتابا سمّاه" السّلوك اللفظي"، أمّا" بلومفيلد" فهو زعيم المدرسة اللغويّة البنيويّة السّلوكيّة (المدرسة التوزيعيّة)، وقد تمّ تفسير اللغة تفسيرا آليّا(استجابة لمثير)، وتمّ النظر إليها على أنّها عادات بسيطة مثل الجري أو اللعب.

وكان لابدّ من انتقاد هذه النظرة الآلية البسيطة في تفسير اللغة، وهو ما قام به فعلا "تشومسكي"، ردّا على المذهب السّلوكي، وهي المرحلة التي تأسست فيها فعلا اللسانيات النفسية/ علم اللغة النفسي في نهاية الخمسينات وبداية الستينات من القرن الماضي، فعلى الرغم من النزعة العقليّة والفلسفيّة للنحو التوليدي، فإنه وجّه الأنظار إلى وجود ملكة نفسيّة دافعة إي إنتاج اللغة وتفسيرها، وفي هذه المرحلة بدأ الاستقلال الفعلي للسانيات النفسية /علم اللغة النفسي، عن اللسانيات/ علم اللغة وعلم النفس، بعد أن كانت بوادر هذا الاستقلال عام (1950) بعد الالتقاء الذي حصل بين الدراسات اللغويّة، وعلم المعلوماتيّة، وقد كان لهذا العلم الدور البارز في تطوير علم اللغة النفسي.

وتأسست نظرية النّحو التوليدي التحويلي على عدد من المفاهيم مثل: الكفاية، والبنية العميقة في مقابل البنية السّطحيّة، والإبداع اللغوي، والكليّات، كما بُنيت على المبادئ الفطريّة التي تمكّن الإنسان من اكتساب اللغة وتعلّمها، فاللغة في هذا الاتّجاه نظام فطري كامن في ذهن الإنسان تجسّده الأداءات الكلاميّة التي يتحكّم فيها عنصر الإبداع، والذي هو خاصية وميزة فرديّة، ووصف اللغة وتفسيرها يجب أن يركّز على هذا الجانب العقلي، وليس على الأداءات الشكليّة، وهذه النّظرة هي السّبب المباشر لنشأة علم اللغة النفسي وتبلور معالمه.

لقد أدى الاهتمام بالجانب المعرفي للغة وليس باللغة في حدّ ذاتها عند" تشومسكي"، إلى تحوّل علم اللغة إلى جزء من علم النفس كما يرى بعض منتقدي هذا اللغوي يبحث في-العمليّات المعرفيّة، وفد تطوّرت الدراسات اللغويّة للجوانب النفسيّة بعد تشومسكي كثيرا، وتطوّر علم اللغة النّفسي ولم يعد يقتصر على الجوانب والقضايا التي طرحها" تشومسكي"، بل انفتح على موضوعات جديدة اسُتمدّت من حقول معرفيّة أخرى وهي :علم النّفس المعرفي، وعلم اللغة العصبي، وعلم اللّغة التطبيقي، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة الإثني، وعلم التربيّة، والمعلوماتيّة، ونظريّة الذكاء الاصطناعي، وما ارتبط بها من العلوم التي قرّبت علم اللغة ال نّفسي إلى الميادين التّطبيقيّة، وهناك من طلّاب " تشومسكي" من حوّل مجال اهتمامه إلى علم النّفس المعرفي، وعلم نفس النّمو اللغوي، وقاموا بطرح قضايا لم يطرحها" تشومسكي"، وقاموا بتطبيقها في ميادين لم يكن "تشومسكي" نفسه يرى إمكانية التطبيق فيها مثل ميدان تعليم اللغات.

وهكذا يمكننا القول إنّ اللسانيات النفسية/ علم اللغة النفسي نشأت مرتبطة بعلمي النفس واللغة، وهي اليوم مرتبطة بعلوم كثيرة نظرا لطابعها التطبيقي الذي يستدعي الحاجة إلى الغنى المعرفي.